المدرسة التّاشفينية[١] بمدينة تلمسان الزّيانية (استقراء وإعادة بناء لمخلّفاتها الأثرية)

د. الرزقي شرقي*

١). موقع المدرسة وتحديد امتدادها التّقريبي:

بُنيت المدرسة[٢] بجوار الجامع الكبير (اللّوحة: ١،أ) في وسط مدينة تلمسان (المخطط: ١)، يوم كانت هذه الأخيرة عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر) في ظلّ حكم الأسرة الزّيانية المحلّية (١٢٣٥ ــ ١٥٥٤)م، وذلك على بعد نحو خمسة وعشرين (٢٥) مترا إلى جهة القبلة منه[٣]. حيث دَرَست عمارتها وانطمست أساساتها بالكامل منذ عام (١٨٧٣)م، تاريخ هدمها العمدي بقرار من إدارة سُلطات الاحتلال الفرنسي بدعوى عدم تناسقها مع الهيئة العمرانية الجديدة المدخلة على المدينة، وتعويضها بدار البلدية الحالية (اللّوحة: ٢،أ،ب) وقسم معتبر من الحديقة التّي تَقْدُمها من الجهة الشّمالية (اللّوحة: ٢،ب) على الرّغم ممّا كانت تتمتع به هذه البناية من حالة جيّدة من الحفظ[٤].

---

[١] وتسمّى أيضا بـ: "المدرسة الجديدة"، تمييزا لها عن المدرسة التّي سبقتها، ألا وهي "مدرسة أولاد الإمام"، أو "المدرسة القديمة"، التّي شيدها السّلطان الزّياني أبي حمّو موسى الأول، والد السّلطان أبي تاشفين الأول المعني في هذا المقام.

* جامعة الجزائر

[٢] أكثر تفاصيل حول المدارس الإسلامية خلال القرون الوسطى بشكل عام، ينظر على سبيل المثال:

- حيدر (كامل)، العمارة العربية الإسلامية؛ نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، دار الفكر اللّبناني، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٥.

- GOLVIN (L), Architecture musulmane; La Madrasa médiévale, Préface de GARCIN (J.C), Edi-Sud, Aix-en-Provence, 1995.

[٣] BOUROUIBA (R), L'art religieux musulman en Algérie, Société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1983, p 197, colonnes 1; GOLVIN, Op.cit p 199.

[٤] يمكن الإشارة في هذا الصّدد إلى شهادة عالم اللّغات الفرنسي "لاَبي، بارجاس"، وما أورده بخصوصها في كتابه الموسوم بـ "تلمسان العاصمة القديمة للمملكة المسمّاة باسمها (طبوغرافيتها؛ تاريخها؛ وصفٌ لأبرز معالمها؛ حكايات مختلفة؛ ذكريات سفر)"، والذي يقول في عقب معاينته الشّخصية لها بنحو خمسة وعشرين سنة قبل هدمها ما ترجمته: "ما تزال المدرسة الجديدة [يعني التّاشفينية كما مرّ في الهامش الأوّل] قائمة لحدّ السّاعة، تتمتع بحالة جيّدة من الحفظ؛ قوامها فضاء معماري رحب، ينقسم ضمنيا إلى عدّة مرافق داخلية، مسوّرة من الخارج بسور شاهق". ينظر :

BARGES L'ABBE (J.J.L), Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments,=

المنارة للاستشارات
www.

ومهما كان من أمر، فإنّ بناء المدرسة قد كان في فضاء مستوٍ رحبه، يمتدّ عليه مخطط البناية المستطيل الشّكل، المتوجهه رأسيا نحو القبلة، أي من الشّمال الغربي صوب الجنوب الشّرقي (المخطط: ٠٢)، إذ يحدّها من الشّمال، والشّمال الغربي جامع المرابطين (الجامع الكبير)؛ وإلى الجهة الغربية يقابلها أحد أعرق المعالم التّذكارية الزّيانية على الإطلاق، ألا وهو مسجد أبي الحسن (اللّوحة: ٠١،ب)؛ ومن الجنوب قلعة المشور(المخطط: ٠١)، معقل الأمراء الزّيانيين وإقامة حشمهم منذ تخلّيهم عن الإقامة

=anecdotes, légendes divers; souvenirs d'un voyage, Editeurs BENJAMAIN (D) & CHALLAMEL (A), Paris, 1859, p 333.

أضف إلى ذلك المساعي الحثيثة التّي قام بها المهندس المعماري "دِيثْوَا" (DUTHOIT) في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المعلم، ساعة تأكّده من تصمّيم وإصرار وزارته على عملية الهدم، حيث ظفر في نهاية المطاف على إثر تقريره الخاص، المسلّم للوزير، بتاريخ ١٠ ديسمبر (١٨٧٢)م بإعانة مالية تكاد أن تكون رمزية، للقيام بعملية الرّفع المعماري للمعلم (اللّوحة: ٠٣)؛ وتكليف الرّسام "دَانْ جوان" (DANJOY) بإعداد لوحة مائية للمدخل الرّئيسي لهذا المعلم الجميل. وهي اللّوحة التّي كانت معروضة بمتحف "كلوني" (CLUNY) بفرنسا قبل عملية اختفائها في ظروف غامضة، ولم يعد لدينا بشأنها غير صورتها الفوتوغرافية (اللّوحة: ٠٤، ب)، وقلع ما أمكن قلعه من عناصر التّنميق والتّأثيث المعماري، وفي مقدمتها الفسيفساء الخزفية (اللّوحة: ٠٥)؛ ومصراعَا أحد الأبواب الخشبية الدّاخلية (اللّوحة: ٠٦)؛ والمصنوعات الرّخامية (حوض الوضوء الذي حُوّل من هذه المدرسة إلى متحف تلمسان مع نهاية القرن ١٩م (اللّوحة:٠٥، ب)؛ ينظر بخصوص هذه الآثار المحوّلة:

- MARCAIS (W), Musée de Tlemcen; Musées et collections archéologiques de l'Algérie et de la Tunisie, Editeur LEROUX Ernest, Paris, 1906, pp 21 N° 193 – 195; p 24 N° 223; PL 12 / 4.
- MARCAIS (G.), L'architecture musulmane d'occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile), éditions Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1954, p290.
- Lui-même, Tlemcen, Série Villes d'art célèbres, Editions du Tell, Blida,2003, pp. 50–51,Planche18.

-DUTHOIT, Archives des missions scientifiques, III^{éme} série, Tome 1, p 325.

-GOLVIN, Op.cit, p 199; BOUROUIBA (R), Op.cit, p 197, colonnes 1 et 2.

° واضح أنّ مؤسّس هذه المدرسة قد حجز لبنايته فضاءً جغرافيا أوسعا من حجمها الافتراضي، كما يستشفّ بوضوح من كبر حجم هذا المعلم وانتظام أضلاع مخططه على الرّغم من وقوعه في نواة عاصمة الزّيانيين على خلاف المدارس المرينية في مدينة فاس مثلا، المشيدة بداخل نُسج عمرانية جدّ مكتظة، حتّمت على مهندسيها ضرورة التّكيف مع شكل القطعة الأرضية المحررة للبناء من جهة، والتّأقلم مع الشّكل الانسيابي لأرض هذه المدينة من جهة ثانية، أين يلاحظ غياب عامل البساطة والاستقامة في جميع مدارس المدينة، البالغ عددها ثمان مدارس (٠٨) كاملة، شأن مخطط مدرسة الصّفّارين، ومدرسة الصّهريج، والمدرسة المصباحية، والمدرسة البوعنانية على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر.

المنارة للاستشارات
www.

في القصر المرابطي القديم على عهد جدّهم الأوّل السّلطان يغمراسن بن زيان؛ ومن الشّرق السّوق القديم للزّرع، المحاذي للحيّ الإفرنجي من قيسارية المدينة(المخطط: ٠١)[٦].

٢). الخصائص التّخطيطية للمعلم:

يمكن استقاء الخصائص التّخطيطية العامة لهذا المعلم من مصدرين أساسيين هما مخطط التّوزيع (المخطط: ٠٢)[٧]، الذي أعدّه المهندس المعماري "دِيتْوَا" قُبيل هدم المعلم، والرّفع المعماري الذي خصّ به المدخل الرّئيسي للمدرسة، الواقع في وسط الواجهة الغربية منها (اللّوحة: ٠٣ أسفل)[٨]؛ إضافة إلى اللّوحة المائية التّي أعدّها الرّسام "دُونْ جوَا" (اللّوحة: ٠٤، ب)، نزلا عن رغبة هذا المهندس لمدخلها الغربي التّذكاري. وهما المصدران اللّذان يكشفان بوضوح على ما يأتي:

أ). المداخل وفتحات التّهوية:

ينطوي المعلم على مدخلين متناظرين وفق محور أفقي يمتدّ من الغرب في اتجاه الشّرق، إلاّ أنّ أحدهما عبارة عن بوابة تذكارية عملاقة (اللّوحة: ٠٤،ب)، حيث تبدو واجهتها الخارجية التّي تشبه إلى حدّ بعيد حنية محراب فخمة، يتقدمها من الدّاخل ظلّة مربّعة شكل، يعلوها سقف في صورة قمع مربع الأضلاع، مقطوع النّهاية الحادّة من الدّاخل.

أُتخذ هيكله الباطني من الخشب، وكسوته الخارجية من القرميد البرميلي الشّكل، الأخضر اللّون من دون شكّ، مثله في ذلك مثل مدرسة سيدي بومدين في الضّواحي

---

[٦] BROSSELARD (C), "Les Inscriptions Arabes De Tlemcen (XXIII Mosquée d'Er-Rouya)", In: Revue Africaine, N° 06, 1862, p165; BARGES, Op.cit, p333.

[٧] هو مخطط نفذه صاحبه بنسبة مقدارها كلّ خمسة سنتمترات على الورق تعدل مترا واحدا على المعلم على حدّ ما جاء في تعليقه الخاص (اللّوحة: ٠٣)، وهو ما يعادل بتعبيرنا الحديث (٢٠ / ١)، ومع ذلك لا يمكن إعطاء الأبعاد الحقيقة للمعلم أمام استحالة الوصول إلى النّسخة الأصلية لهذا المخطط، والاكتفاء بنسخه، وفق سلّم مجهول، ولكن بالنّظر إلى حجم مقياس الرّسم الكبير المعتمد في مقارنته بحجم الورق المعتمد في تنفيذ المخططات الحديثة من جهة، ومقارنة وضعية هذا المعلم ببقية المعالم الزّيانية المجاورة له من جهة ثانية، والتّي لا بد أن يكون معها في انسجام وتناسق محكم، وفق ما تفرضه المقوّمات الأساسية لتهيئة المدينة الإسلامية خلال القرون الوسطى يمكن القول بأنّ أبعاد هذا المعلم قد كانت في حدود (٢٥ × ١٥) متر.

[٨] نفس الشّيء يقال على هذا الشّكل، الذي رسمه صاحبه بنسبة مقدارها كلّ خمسون سنتمترا على الورق تعدل مترا واحدا على المعلم كما جاء في تعليقه الخاص (اللّوحة: ٠٣)، أي ما يعادل بتعبيرنا الحديث (٢ / ١) إن لم يكن مخطئا في ذلك، حيث نعتقد بأنه يقصد كلّ خمس سنتيمترات، أي نفس المقياس السّابق (٢٠ / ١).

المنارة للاستشارات
www.

(اللّوحة: ٠٧)؛ حيث ينطلق من نهايتها المقابلة نحو الدّاخل رواق منتظم الأضلاع يُفضي إلى الصّحن المركزي المكشوف، ومجنبته الغربية المعقودة، حيث تنفتح مداخل غرف الإيواء، الواقعة بتلك الجهة من المعلم (المخطط: ٠٢).

هذا فيما يخصّ المدخل الرّئيسي للمدرسة، أمّا المدخل الثّاني فهو عبارة عن مدخل أقلّ أهمية من سابقه، كما يمكن أن يستنبط من الجهة المفتوح عليها، والتّي تتميّز بقلّة حركة المارّة فيها؛ ولذلك اتسم بصغر حجمه، وبساطة زخرفته مقارنة بالمدخل الغربي الآنف الذكر، إذ يبدو في شكل متطابق مع مدخل مسجد أبي الحسن المجاور (اللّوحة: ٠١،ب)، ومدخل مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد (اللّوحة: ٠٤،ج)، وشكل مداخل بقية المعالم المعاصرة له، أو القريبة من تاريخه بالمدينة ذاتها، كمدخل مسجد سيدي الحلوي (اللّوحة: ٠٤،أ)، وجامع سيدي إبراهيم على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر.

وأمّا فيما يتعلّق بفتحات التّهوية، فيمكن عدّ ثلاث عشرة (١٣) نافذة على ضوء المخطط المذكور أعلاه (المخطط: ٠٢)، والرّفع الجزئي للواجهة الغربية للمبنى (اللّوحة:٠٣ أسفل)، الذي يُمَكن من تصوّر شكل نوافذ المعلم، والتّي تبدو في المخطط بأبعاد متساوية، وبالتّالي بشكل موحد، حيث يبدو أنّها تمتدّ رأسيا من الأسفل إلى الأعلى، أين تنتهي بقوس نصف دائري الشّكل، موزعة عبر أجنحة المعلم بالكيفية الآتية: نافذة واحدة إلى يمين المدخل الغربي، وخمس نوافذ أخرى إلى يساره، في الوقت الذي نجد فيه الجهة الشّرقية منطوية على ثلاث نوافذ إلى يسار المدخل، وأربع نوافذ أخرى إلى يمينه، وافتقاد الواجهتين المتبقيتين للمعلم لأي فتحة مماثلة٩. أين يُسجّل وجود سور صغير يلفّ بالمبنى بداية من الجهة اليسرى للمدخل الغربي، مرورا بكامل الجهة الشّمالية المقابلة للجامع الكبير، وانتهاء عند الجهة اليسرى من المدخل الشّرقي (المخطط: ٠٢).

ب). الصّحن المركزي:

ينفتح الرّواقان المحاذيان للمدخلين السّابقين من الدّاخل على صحن مركزي مكشوف، يحفّ به من الجهتين الشّرقية والغربية رواق جانبي طويل، تتخلّله سبعة عقود منتصبة على ثمانية أعمدة مربعة الشّكل من الجهة المطلّة على ساحة الصّحن (المخطط: ٠٢).

[٩] لا شكّ أنّ هذا الاختلال في توزيع النّوافذ على جدار الواجهة الرّئيسية للمعلم، هو في حدّ ذاته دليل على تعرض هذا الأخير إلى تعديلات قديمة، أخذت بعين الاعتبار الحاجة إلى الإضاءة والتّهوية الدّاخلية المتماشية مع التّهيئة المقترحة من غير الأخذ بعين الاعتبار الانسجام الخارجي لواجهة المعلم.

المنارة للاستشارات
www.

أمّا بالنّسبة للجهتين المتبقيتين (جهة القبلة، والجهة التّي تقابلها) فيلاحظ وجود ظلّتين متناظرتين في شكل مستطيل، يمتدّ أفقيا من الغرب إلى الشّرق. حيث تنفتح كلّ واحدة منهما على باحة الصّحن بثلاثة عقود على شاكلة عقود الرّواقين الآخرين بهذا الصّحن؛ كما يزيّن أرضية كل واحدة منهما دائما حلّة فاخرة من الفسيفساء الخزفية الرّفيعة (المخطط: ٠٢) إلى جانب حوض رخامي مفصص (اللّوحة: ٠٥،ب) بالظّلة التّي كانت تقدم مصلّى المدرسة.

ج). المصلّى ومرفقاته (المئذنة والضّريح):

يضم مصلّى المدرسة أسكوب مستطيل واحد ينقسم ضمنيا إلى ثلاثة أقسام، غير متساوية، وغير متجانسة في آن واحد (المخطط: ٠٢). أمّا القسم المركزي منه فهو عبارة عن مثمن متدرج الأركان، تتوسطه حنية المحراب، خماسية الأضلاع، بارزة على مستوى جدار القبلة؛ وعلى نفس الاستقامة مدخل من ظلّة الصّحن المنطوية على حوض رخامي مفصص في الجدار المقابل(اللّوحة: ٠٥،ب). تعلوها أربعة عقود، تجمع بينها حنايا ركنية على مستوى منطقة الانتقال لتشكيل رقبة قبّة مضلعة الشّكل، قوامها اثنا عشر ضلعا (المخطط: ٠٢).

هذا فيما يخص القسم المركزي من المصلّى، أمّا بخصوص القسمان الجانبيان، فكلاهما مستطيل الشّكل، وكلاهما يمتدّ رأسيا في اتجاه جدار القبلة، إلاّ أن القسم الواقع إلى يمين المحراب أوسع مساحة من الآخر، حيث يتصل بالقسم المركزي عن طريق فتحة معقودة كبيرة، وهو يتضمن جدار عازل في شكل الحرف اللاّتيني (L) لعزل ضريح مجهول الهوية، ينزوي بأقصى الرّكن الشّمالي الغربي من المصلّى١٠، حيث يسجّل له مدخلا ضيقا، مستقلاّ به على يمين المدخل الذي يربط هذا القسم بالرّواق الغربي من الصّحن (المخطط: ٠٥).

وهو القسم الذي كان سقفه على شاكلة القسم المركزي فيما يبدو، إلاّ أن عدد أضلاع رقبة قبّته هذه المرّة تقلّصت إلى ثمانية أضلاع بدل اثنا عشر ضلعا، كما كانت عليه في قبّة القسم المركزي؛ مثله في ذلك مثل القسم الثّالث والأخير، الذي يبدو عليه أنّه كان شاغرا، ولا يتضمّن غير مدخل مفتوح على مستوى نهاية الرّواق الشّرقي من الصّحن على شاكلة مدخل قسم الضّريح في الضّفة المقابلة، ومدخل آخر على مستوى الزّاوية الشّمالية الشّرقية يفضي إلى مئذنة المصلّى، الواقعة في أقصى الزّاوية الجنوبية

١٠ ينظر بخصوص هذه المسألة: MARCAIS, (G), "Remarques sur les medersas funéraires en Berbérie", In: Mélanges GAUDEFROY-DEMONBYNES, le Caire, 1934, p259 ss; GOLVIN, Op.cit, p 202.

المنارة للاستشارات
www.

الشّرقية من المدرسة؛ والتّي قوامها مربع منتظم الأضلاع، تتوسطه نواة مركزية مصمتة، يلفّ من حولها درجات السّلّم، المنتهي من دون شك عند عتبة جوسق تلك المئذنة.

د). غرف الإيواء:

يقدر عددها في هذا المخطط (٠٣) بثمان (٨) غرف مستطيلة الشّكل منها: غرفتان صغيرتان، متقابلتان، على مستوى الرّواق المنطلق من ظلّة المدخل الغربي من البناية، وغرفتان كبيرتان في ظهرانيها، تنفتحان على مجنبة الصّحن بمدخل في أقصى الزّاوية الجنوبية الشّرقية بالنّسبة للغرفة الواقعة يمين المدخل المذكور، وفي أقصى الزّاوية الشّمالية الشّرقية بالنّسبة للغرفة المقابلة لها، إلاّ أنّ هذه الأخيرة تتوفّر على ثلاثة نوافذ معقودة، بدل نافذة واحدة في سابقتها (اللّوحة: ٠٣ أسفل)، والتّي تفتقد الغرفة الصّغيرة المجاورة لها إلى أي نافذة.

وفي الجهة الشّرقية المقابلة تقع غرفتان متماثلتان مفتوحتان على مجنّبة الصّحن بأربعة مداخل لكلّ واحدة منهما، وإلى جوارهما بالجهة الشّمالية يقع سلّم صغير يؤدي إلى طابق علوي١١ من الغرف على شاكلة طابق مدرسة أبي الحسن عليّ المريني بالعباد (اللّوحة: ٠٧)؛ وإلى خلفهما غرفتان مستقلّتان عنهما، تتقابلان فيما بينهما عند المدخل الشّرقي للمدرسة، كما تتصلان بصحن المدرسة عن طريق رواق ثان مستقلّ، يرتبط برواق المدخل الشّرقي، إلى جانب تزويد الغرفة اليسرى من المدخل المذكور بثلاث نوافذ، والغرفة الثّانية بأربع نوافذ، إضافة إلى مدخل في أقصى الرّكن الشّمالي الغربي منها لربطها بالمجنبة الشّرقية من الصّحن.

علما أنّ جميع هذه الغرف قد كانت مغطاة بسقف خشبي من الدّاخل، جاملوني الشّكل (اللّوحة: ٠٣ أعلى)، ومن الخارج بقرميد أخضر اللّون، برميلي الشّكل (اللّوحة: ٠٣ أسفل) على شاكلة سقف مدرسة أبي الحسن المذكورة (اللّوحة: ٠٧).

هـ) الميضأة، والمغسلة والمراحيض:

تضم المدرسة ميضأة صغيرة على شاكلة الميضأة الواقعة بوسط الجدار الجنوبي من جامع القرويّين بمدينة فاس المغربية، كانت تقع خلف القسم المركزي من المصلّى مباشرة؛ و مغسل الثّياب والأفرشة، أو مطبخ جماعي١٢؟ في الجهة المقابلة من

---

١١ أشار إلى ذلك أيضا الباحث "قولفين" في بحثه المذكور أعلاه: GOLVIN, Op.cit, pp 201 - 202.

١٢ اقترح بشأنها الباحث الفرنسي "قولفين" فرضية وجود مدخل سابق واحد، كان يقابل الجامع الكبير قبل أن يوصد ويعوض بمدخلين متقابلين في وقت لاحق، إلاّ أنّنا لا نشاطره الرّأي لعدّة اعتبارات، لعلّ من أبرزها على الإطلاق، هو وجود سور خارجي يفصل المدرسة عن ما يجاورها من تلك النّاحية

المنارة للاستشارات
www.

الصّحن، حيث تبدو للعيان ظلّة مماثلة لظلّة الميضأة، يخترقها مدخل في النّاحية الشّمالية يفضي إلى قاعة مربعة الشّكل تنقسم إلى قسمين يفصل بينهما صف من العقود، حيث القسم الأوّل منهما يخترقه مدخلان جانبيان، أحدهما من جهة الرّواق الشّرقي من الصّحن، أيضا يلاحظ خلف هذا المدخل بهو صغير انفتح فيه سلّم الطّابق العلوي من غرف الإيواء، ومدخل الغرفة اليمنى من غرف الجهة الشّرقية، وبابَا مخزن صغير؛ على خلاف المدخل الآخر المقابل له من جهة الرّواق الغربي، الذي يسبقه هو الآخر بهو صغير مزود بنافذة في أقصى الرّكن الشّمالي الغربي لتهوية المكان وإنارته.

وهو الفضاء الذي يعتبر امتدادا عضويا للظّلة التّي تقدمه بداخل الصّحن كما يستشف من تقنية تبليط أرضيتهما بكسوة فسيفسائية موحدة (المخطط: ٠٢). أمّا المراحيض فقد أنشئت خارج المدرسة، وتحديدا بالزّاوية الشّمالية الغربية من المصلّى، حيث خُصّت بمدخل مستقلّ، قوامها صحن صغير مكشوف، محاط بعدّة بيوت خلاء (المخطط: ٠٥).

٣). مميزات المعلم الفنّية والجمالية:

لم يبق من الآثار المادّية لهذا المعلم الشّيء الكثير، فباستثناء عيّنات الفسيفساء (اللّوحة: ٠٥)، المحفوظة حاليا بالمتحف المحلّي للآثار بمدينة تلمسان، وبعض العيّنات المماثلة لها بالمتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية بمدينة الجزائر العاصمة، إضافة إلى مصراعَا باب خشبي داخلي (اللّوحة: ٠٦) محفوظان بمتحف مدينة تلمسان الآنف الذكر؛ وكذا اللّوحة المائية التّي خُصّ بها المدخل الغربي من المدرسة (اللّوحة: ٠٤،ب) قُبيل هدم المعلم عام (١٨٧٣)م، لم يعد هناك ما يستحق الذكر.

ومع ذلك فإنّ هذا النّزر القليل من الشّواهد الأثرية كفيل برسم صورة واضحة المعالم حول دقّة وإتقان بناء هذه المدرسة كما يستشف من خصائصها التّخطيطية المحكمة،الآنفة الذكر، وما تتمتع به من فخامة ورشاقة ساحرة، كما يستنبط من طبيعة الألوان وتناسقها (الأبيض، والبنّي، والأخضر، والأزرق) في فسيفساء المعلم (اللّوحة: ٠٥)، ودقّة الأشكال النّباتية والهندسية المزيّنة لمواضيعها الزّخرفية (اللّوحة: ٠٥،ب) وتناسقها فيما بينها، وكذا طريقة توزيعها عبر أقسام المعلم، حيث يسجل عمل الفسيفساء على مستوى جدران المدخل الرّئيسي بغرب المدرسة (اللّوحة: ٠٤،ب)، وعلى مستوى أرضية الميضأة، وأرضية المغسلة؟ المقابلة لها في فضاء الصّحن المركزي المكشوف، ولربّما الأقسام السّفلية من جدرانهما.

(المخطط: ٠٢)، ووجود منشأة مائية أمامها من الدّاخل على مستوى الصّحن، كما يستشف من تبليط أرضيتها بالفسيفساء الخزفية (المخطط: ٠٢). أمّا أستاذه "جورج مارسيه" فقد اعتقد بأنّها مصلّى ثانٍ، أو قاعة تدريس، والأمر أبعد من أن يتوقف المرء لمناقشته.

المنارة للاستشارات
www.

أضف إلى ذلك متانة ودقّة الصنّاعة الرّخامية (اللّوحة: ٠٥،ب)، والخشبية كما هي مجسّدة في مصراعي الباب، المذكورين من قبل (اللّوحة: ٠٦)، وما ينطويان عليه من ترصيع بالمسامير المعدنية المنتفخة الرّؤوس، وصبغ أحمر ملون، وأشكال هندسية مضافة من الخشب.

وعاد بموجب ذلك هذا المعلم شبه إقامة ملكية، أكثر من مؤسسة تعليمية على حدّ شهادة مؤرّخ الزّيانيين الحافظ التَّنْسي، الذي يقول بشأنه: "وحسَّن ذلك كلّه[١٣] ببنائه المدرسة الجليلة، العديمة النّظير، التّي بناها بإزاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئا ممّا اختصّت به قصوره المبنية[١٤]، إلاّ وشيّد مثله بها[١٥]. شَكَر الله له صنعه وأجزل عليه

١٣ يعني السّلطان أبي تاشفين عبد الرّحمن بن أبي حمّو عثمان بن أبي سعيد بن أبي يحيّى يغمراسن بن زيان، الذي وُلد عام (٦٩٢هـ / ١٢٩٣م)، وبويع بالإمامة يوم الخميس الثّالث والعشرين خلون من جمادى الأولى عام (٧١٨هـ / ١٣١٨م)، والذي دام حكمه إلى تاريخ أسره ووفاته بفاس في ٢٨ رمضان (٧٣٧هـ / ١٣٣٧م)، أيّام حكم السّلطان المريني الكبير أبي الحسن عليّ بن أبي عثمان سعيد، وهو يومئذ في الخامسة والأربعين من العمر، والذي كانت فترة حكمه، المقدّرة بتسع عشرة سنة، عصر تطوّر وازدهار لتلمسان في مختلف مجالات الحياة، كبناء بعض قصور قلعة المشور (دار الملك، ودار السّرور، ودار أبي فهر)، وبناء مئذنة الجامع الكبير بمدينة الجزائر، منتهى الامتداد السّياسي لدولته نحو الشّرق ببلاد المغرب الأوسط، وتوفير الماء لعاصمته ببناء الصّهريج الأعظم، وجلب له الماء من أعلي المنصورة، وتنظّيم الحياة التّجارية والصّناعية بعاصمة الدّولة، وتوحيد نظام تقييس دولته، كما يستشف من بقايا ذراع رخامية نحتت باسمه في قيسارية المدينة، محفوظة اليوم بمتحف تلمسان، حيث عد من أعظم السّلاطين الزّيانيين على الإطلاق على الرّغم من القصر النّسبي لفترة حكمه، والذي كان تاريخ أسره إيذان بنهاية العصر الأوّل لازدهار الدّولة الزّيانية، أكثر تفاصيل حول مناقب هذه الشّخصية البارزة في التّاريخ الزّياني، ينظر:
- ابن خلدون (أبو زكريا يحيّى بن محمد)، بُغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠، ص ٢١٩.
- ابن الأحمر(أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري النّصري)، تاريخ الدّولة الزّيانية بتلمسان لابن الأحمر، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، نشر مكتبة الثّقافة الدّينية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، الطّبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٧٢ – ٧٣.
١٤ يعني الدّور الثّلاث التّي بناها بقلعة المشور، أي (دار الملك، ودار السّرور، ودار أبي فهر).
١٥ تَصْدق هذه العبارة الأخيرة على اللّوحات الفسيفسائية الملتقطة من المشور، ونظيرتها الملتقطة من هذه المدرسة، حيث نجدها بذات الألوان، وبنفس التّقنية، ولا تختلفان إلاّ في موضوع الزّخرفة، حيث يلاحظ طغيان الطّبق النّجمي المثمن الرّؤوس في فسيفساء المشور، والنّجمة المعقدة (ستة عشر رأسا) في فسيفساء المدرسة التّاشفينية.

المنارة للاستشارات
www.

ثوابه"[١٦]. والفرنسي "بارجاس" الذي عاين ذلك بنفسه في منتصف القرن (١٩)، وذكر بأنّ هذا المعلم هو في حُلّة القصور الملكية وليس حلّة المؤسسات التّعليمية[١٧].

٤). أبرز الزّيادات والتّعديلات التّاريخية المدخلة على المدرسة:

حاول الباحث الفرنسي "قولفين" في بادئ الأمر تأريخ المعلم بعام (٧٢٧هـ / ١٣٢٧م)، قبل أن ينتقل إلى الإشارة إلى تعرضّ المعلم إلى عدّة إصلاحات وتعديلات تاريخية من غير أن يهتدي إلى معرفتها أصلا، كان من أبرزها على الإطلاق في اعتقاده دائما، إصلاحات السّلطان الزّياني أبي العباس أحمد العاقل (٨٣٤ – ٨٦٦هـ / ١٤٣٠ – ١٤٦١م)[١٨].

والحقيقة أنّ جميع المنشآت المعمارية (مئذنة الجامع المرابطي بمدينة الجزائر العاصمة؛ والدّور الثّلاث في قلعة المشور: دار الملك، ودار السّرور، ودار أبي فهر؛ والصّهريج الأعظم بأقصى غرب مدينة تلمسان "المخطط: ٠١")، التّي شيّدها هذا السّلطان، "المولع بتحبير الدّور، وتشييد القصور"، كما قال عنه الحافظ التّنسي في مصدره المذكور[١٩]، لا تتضمّن إشارة إلى تاريخها، كما هو معهود في المعالم التّذكارية، وكلّ ما في الأمر أنّها شُيّدت جميعا في ظرف أقصاه تسع عشرة سنة، وتحديدا خلال الفترة الزّمنية الممتدّة بين سنة (٧١٨ / ١٣١٨م)، تاريخ اعتلاء هذا العاهل سدّة الحكم، وسنة (٧٣٧هـ / ١٣٣٧م) تاريخ أسره ووفاته بمدينة فاس.

ومن ثم يكون تقديم تاريخ هذا المعلم، أو تأخيره بعقد، أو عقد ونيف لا يقدم، ولا يؤخّر شيئا في مجال هذا البحث؛ وأنّ محاولة "قولفين" في منح المعلم تاريخا مضبوطا (٧٢٧هـ / ١٣٢٧م)، مجرّد اجتهاد، أو رأي شخصي، لا يلزم غير صاحبه، ولا يحتاج إلى مناقشة أطول.

أمّا بخصوص التّعديل المزعوم الذي يكون قد قام به السّلطان الزّياني أبي العباس أحمد العاقل في غضون القرن (٩هـ / ١٥م) على هذا المعلم، فهو مستبعد جدّا لسبب أساسي، هو استقاء "قولفين" لهذه المعلومة من عند الباحث الجزائري "بورويبة، رشيد"[٢٠]، الذي يبدو عليه أنّه قد أخذها بدوره على السّائح الفرنسي "بارجاس" من غير

١٦التّنسي (محمد بن عبد الله، المعروف بالحافظ التّنسي، المتوفى عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م)، تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدّرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان)، حققه، وعلّق عليه: محمود بوعياد، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٤١.

17 BARGES, Op.cit, p331.

18 GOLVIN, Op.cit, p199.

[١٩] التّنسي، مصدر سابق، ص ١٤١.

[20] BOUROUIBA (R), Op.cit, p 197, colonnes 1.

المنارة للاستشارات
www.

تمحيص٢١؛ الذي وقع في فخّ الاشتباه بين هذه المدرسة، ومدرسة زاوية الولي الصّالح " أبو عليّ الحسن بن مخلوف المزيلي، المدعو بأبركان "، المتوفى في أواخر شهر شوّال من عام (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م)٢٢.

الذي كانت له زاوية دارسة بحيّ "باب زير" في أقصى الرّكن الشّمالي الشّرقي من المدينة لتعليم الصّبيان، تُنعت أحيانا بمدرسة سيدي الحسن٢٣؛ وبالمدرسة الجديدة٢٤ أحيان أخرى، كما توهم "بارجاس"، والباحث الجزائري "بورويبة" على حدّ ما يُفهم من نصّ عبارته: "رُمّمت هذه المدرسة من طرف السّلطان أبي العباس باعتبارها ملحقة لزاوية سيدي الحسن المزالي"٢٥.

وهي العبارة المستنبطة من نصّ التّنسي الذي نقله بحذافيره "بارجاس"، والقائل بالحرف الواحد: "وبني٢٦ بزاويته المدرسة الجديدة وأوقف عليها أوقافا جليلة٢٧، كثيرا من ربع الأحباس قد دثر، والوظائف التّي بها انقطعت، فأحيى رسمها، وجرد ما دثر، وأجرى الوظائف على أزيد ما كانت عليه من قبل"٢٨. يوم كان هذا العاهل يتردّد على الشّيخ، ويأخذ باستشارته في كثير من الأمور المصيرية، كان من جملتها استشارته في الخروج للمرينيين المحاصرين لعاصمته، مدينة تلمسان٢٩، ويهاديه بالأموال والهبات بطريقة غير مباشرة، بعدما كان هذا الأخير يرفض الأعطيات بمختلف أشكالها٣٠.

---

21 BARGES, Op.cit, p333.

٢٢ أكثر تفاصيل حول مناقب هذا الشّيخ الورع، ينظر: ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المديوني التّلمساني)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون ذكر تاريخ الطّبع، ص ٧٤ – ٩٣.

٢٣ ابن مريم، مصدر سابق، ص ٢٤٠.

٢٤ مقارنة بالمنشآت التّعليمية (المدارس، والزّوايا) التّي سبقتها.

25 BOUROUIBA (R), Op.cit, pp 197, colonne 1; 198 col 1.

٢٦ يعني السّلطان أبي العباس أحمد العاقل.

٢٧ وهي العبارة التّي تتماشى مع ما ذكره الشّيخ السّنوسي حول أستاذه أبركان، كما هو مبين في موضعه بعد قليل.

٢٨ - التّنسي، مصدر سابق، ص ٢٤٨ – ٢٤٩؛

- BOUROUIBA (R), Op.cit, p 197, colonne 1.
- BARGES, Op.cit, p333.

٢٩ التّنسي، مصدر سابق، ص ٢٤٨.

٣٠ يمكن الإشارة في هذا الصّدد إلى ترك هذا السّلطان كيسا من النّقود الذهبية ساعة انتهاء جلسته مع الشّيخ بزاويته في أحد الأيام من غير إخبار وزيره، أو حاجبه بذلك، بعدما شقّ عليه الأمر في منحها بشكل مباشر للشّيخ، إلاّ أن الشّيخ لما عثر على كيس النّقود في مجلس السّلطان بعد نهاية الزّيارة، ظنّ أنّها وقعت من هذا الأخير، فاتّصل في الحال بمرافق السّلطان ليعيد إليه الكيس؛ عند ذلك اعترف

المنارة للاستشارات
www.

ولعلّ ما لا يدع شكّا في ذلك، هو ما أورده تلميذ هذا الشّيخ، محمد بن يوسف السّنوسي الذائع الصّيت في العالم الإسلامي بعقائده الثّلاث٣١؛ الذي يقول بأنّه في أحد الأيام بعث السّلطان المذكور "أبي العباس أحمد العاقل" إلى شيخه أبركان بشيء من غلاة مدرسة "سيدي الحسن أبركان"، فامتنع، فألحّوا عليه، فكتب اعتذارا مطوّلا فقُبل منه٣٢؛ قبل أن يضيف في موطن آخر ما نصّه بالحرف الواحد: "... يدعو في آخر حياته أن يقبضه الله سبحانه إليه قبل أن يأكل من أحباس المدرسة؛ يعني أكله من غير علم منه، خوف إدخال شيء من ذلك في عشائه الذي يأتي إليه من دار ولده، ... وكان يكره المدرسة كراهة شديدة".

أضف إلى ذلك ما أقدم على فعله السّلطان المريني أبي عنان فارس، ساعة دخوله مدينة تلمسان في عقب حصاره الخانق لها، حيث كلّف للتّو قائد جيشه "عرعار" بأن يسوق خمسة آلاف شاة للشّيخ أبركان بغرض توزيعها على فقراء ومساكين هذه المدينة٣٣.

ومهما كان من أمر، وبعيدا عن إجراء حفرية مبرمجة في الوقت الرّاهن لفض جميع الإشكاليات التّاريخية والأثرية التّي يعرضها أمامنا هذا، فإنّ الشّيء المؤكد من خلال محاولتنا لاستنطاق مخطط المعلم، هو وجود أكثر من تعديل تاريخي مُلحق بالمدرسة، تماما كما ذكر كلّ من: "مارسيه، جورج"، و"بارجاس لابيه"، و"بورويبة، رشيد"، والتّي يمكن حصرها في ثلاثة أعمال أساسية:

أ). البناية الأصلية:

كانت المدرسة في أوّل منشئها (المخطط: ٠٣) عبارة عن بناية مستطيلة الشّكل، قوامها طابقين أساسيين، تماما على شاكلة مدرسة العباد (اللّوحة: ٠٧)؛ حيث كان الطّابق الأرضي الذي يعد بمثابة الطّابق الرّئيسي للبناية، منطويا على جميع مرافق هذه المدرسة، إذا ما أُستُثني جانبا من غرف الإيواء، والأروقة العلوية المؤدّية إليها (اللّوحة: ٠٧).

السّلطان بالحقيقة، وأوضح بأنه تركها عن طواعية، ولم تسقط منه. ابن مريم، مصدر سابق، ص ٨٩ – ٩٠.

٣١ ينظر ترجمته على سبيل المثال عند: ابن مريم، نفسه، ص ٢٣٧ – ٢٤٨.

٣٢ ابن مريم، مصدر سابق، ص ٢٤٠.

٣٣ نفسه، ص ٩٠.

المنارة للاستشارات
www.

فقد كان يتضمن صحنا مركزيا مكشوفا، تتوزع من حوله بقية مرافق المعلم، كالمصلّى الذي يتجزأ ضمنيا إلى ثلاثة أقسام فرعية على شاكلة بعض مصلّيات المدارس المشرقية منها عامّة، والحلبية السّورية منها خاصّة[٣٤]. تلك الخاصّية المشرقية الوحيدة التّي تُلاحظ على هذا المعلم، أمّا ما دون ذلك فلا يخرج على نطاق الوحدة الفنية التّي جمعت بين المغرب الإسلامي بأبعاده الثّلاثة (الأدنى، والأوسط، والأقصى) وجزيرة الأندلس منذ القرن (٦هـ / ١٢م)، وحتّى الفترة الحديثة، ألا وهي وحدة الفنّ "المغربي-الأندلسي" الذي ميّز المنطقة على بقية مناطق الخلافة الإسلامية الأخرى.

كما يمكن أن يستشف بوضوح من شكل محراب المصلى، المتميز ببروزه على مستوى جدار القبلة، وتعدد أضلاعه إلى خمسة أضلاع؛ وكذا الشّكل المربع لمئذنته القصيرة نسبيا (اللّوحة: ٠١،ب)، وهما خاصّيتان أساسيتان وفقا لمحاريب، ومآذن مساجد المنطقة منذ عهد الموحدين بوصفهم أصحاب إمبراطورية جهوية هناك. أضف إلى ذلك شكل السّقف من الدّاخل (الخشب) والخارج (القرميد)، وشكل الفسيفساء الخزفية (اللّوحة: ٠٥)، أحد العناصر الرّئيسية في التّنميق المعماري بالفنّ المغربي- الأندلسي إلى جانب الزّخرفة الجصّية.

وغُرف الإيواء التّي يبدو عليها أنّها كانت متماثلة من الجهتين (الشّرقية، والغربية)، حيث كان يوجد صفّ واحد من هذه الغرف المتساوية، والتّي يبلغ عددها في كلّ صفّ ثمان غرف، أي بمجموع أجمالي مقداره ستّ عشرة غرفة، مقسّمة ضمنيا إلى أربعة أجنحة يفصل فيما بينها رواقًا المدخلين الوحيدين للمعلم، والمجنبتان الشّرقية والغربية للصّحن المركزي (المخطط: ٠٣). كما كانت كلّ غرفة منها تنفتح على الصّحن بمدخل خاص، وتتصل بالعالم الخارجي عن طريق نافذة على مستوى الجدار المقابل لجدار مدخلها الخاص.

يضاف إلى كلّ ذلك سلمّ الطّابق العلوي، والمغسلة التّي قد تكون مرحاض أوّليا يوم كانت المدرسة في عزّها الأول، أو مطبخا جماعيا والميضأة التّي بخارج المعلم التّي يحتمل أنّها أضيفت في عقب التّوسيع المذكور أدناه (المخطط: ٠٥)، ومدخلا المدرسة، حيث يميّز مدخل رئيسي تذكاري في الجهة الغربية، ومدخل ثانوي أقلّ فخامة من سابقه في الجهة المقابلة على الرّاجح (المخطط: ٠٣).

ب). توسيع البناية الأصلية:

يبدو أنّ هذه المدرسة التّي كان للعالم المتفنّن أبو موسي عمران المشذالي، أحد كبار فقهاء المذهب المالكي في عصره، شرف أوّل مَنْ يُدرّس بها من العلماء[٣٥]؛ قبل أن

34 GOLVIN, Op.cit, p202; BOUROUIBA (R), Op.cit, p 197, colonne 2.

[٣٥] التّنسي، مصدر سابق، ص ١٤١ – ١٤٢.

المنارة للاستشارات
www.

يعقبه على مدار عشرات السّنوات رجال أكْفاء من مستوى أقضى قضاة تلمسان السّعيد العقباني، المتوفى عام (٨٠٤)، أو (٨٠٥)هـ على حدّ اختلاف الرّوايات التّاريخية بشأن تاريخ وفاته[٣٦]؛ وما أمكنهم من تكوين طاقات نادرة بمستوى الشّيخ العَلَم، الولي الصّالح أبي إسحاق إبراهيم المصمودي، الذي بلغ من تبجيل السّلاطين الزّيانيين له مرتبة عالية، دفعت بهم إلى دفنه في روضتهم الملكية الخاصّة، جنبا إلى جنب مع أمرائهم وسلاطينهم[٣٧]،قد عرفت تراجعا ملحوظا على مستوى عائداتها من الأوقاف والصّدقات، نتيجة المحن المتكرّرة على تلمسان في مقابل ارتفاع عدد الطّلبة المتمدرسين بها إلى إجراء تغييرات ليس على مستوى تسييرها الاقتصادي والإداري فحسب، وإنّما تعدّاه إلى المساس بهيكلها المعماري ذاته، حتّى يتلاءم مع المقتضيات الظّرفية الطّارئة.

فبعدما كان الطّالب في المدرسة يحصل على كتاب من السّلطان باسمه، يتضمن رقم الغرفة التّي سيقيم فيها بمفرده بأثاثها، وفرشها، ومئونته من السّمن والزّيت، واللّحم، وفحم التّدفئة والطّهي، وجميع ما يحتاج إليه[٣٨]، كما يمكن أن يستنبط من حجم، وشكل تصميم غرف الإيواء في الأصل، والتّي قد يصل عددها في هذا المعلم إلى بضع وثلاثين غرفة كاملة؛ عاد الطّلبة يعيشون في مراقد جماعية، بلغ عددها ستّة مراقد بالمدرسة التّاشفينية، وذلك بتحويل كلّ جناح من الأجنحة الأربعة في الطّابق الأرضي من غرف الإيواء إلى مراقد جامعية، إضافة إلى بناء مرقدين جديدين خلف غرف الجهة الشّرقية من الصّحن، وكذا زيادة ظلة المدخل الشّرقي (المخطط: ٠٤)، وعاد بموجب ذلك الطّلبة يعيشون، عيشة بائسة في مدرستهم على حدّ شهادة حسن الوزّان الذين زارهم في غضون القرن (١٠هـ / ١٦م)، واطلع على معاناتهم اليومية عيانا هناك[٣٩].

ج). تهيئة ضريح المدرسة:

ليس لدينا من الأدلّة ما يؤكّد تاريخ اتخاذ ضريح بالمدرسة التّاشفينية (المخطط: ٠٥) إلاّ أنّه يمكن افتراض ذلك بعد القرن (١٠هـ / ١٦م)، أو بالأحرى بعد زيارة حسن الوزان لتلمسان، الذي لم يشر من جانبه إلى وجود أضرحة بداخل مدارس تلمسان على عهده على الرّغم ممّا أبداه من ملاحظات دقيقة، في مواطن أخرى، كعدد المداخن الموجودة بالمدينة على سبيل الذكر، لا التّخصيص والحصر.

٣٦ ابن مريم، مصدر سابق، ص ٦٥ - ٦٦.
٣٧ نفسه، ص ٦٥.
٣٨ الوزان (حسن)، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٣، الجزء الثّاني، ص ٢١؛
٣٩ حسن الوزان، مصدر سابق، ص ٢١.

المنارة للاستشارات
www.

أضف إلى ذلك أنّ ظاهرة وجود ضريح في المدرسة، هي ظاهرة معهودة جدا في المدارس المشرقية، لكن لا نعرف لها وجودا في جميع المدارس المغربية التّي سبقت، والتّي لحقت هذه المدرسة، سواء في المغرب الأدنى (تونس) حيث توجد أقدم مدرسة في المغرب الإسلامي.٤٠، ولا المغرب الأوسط (الجزائر)، ولا المغرب الأقصى حيث يوجد العديد من المدارس بكل من فاس، ومكناس، وسلا والرّباط على وجه الخصوص.

فالمدرسة التّاشفينية إذا تنفرد بهذه الخاصية عن بقية مدارس المغرب الإسلامي برمته، وما يبقي لنا غير معرفة تاريخ هذه التّهيئة البسيطة، المُدخلة على الرّكن الشّمالي الغربي من المصلّى بإضافة جدار عازل في شكل الحرف اللاّتيني (L) غير نافذ إلى السّقف (المخطط: ٠٥)، وكذا معرفة صاحب القبر الذي دفن هناك بوصفه شخصية ما تزال جدّ مغمورة لدينا.

تلك الوظيفة التّي ظلّت المدرسة محتفظة بها إلى غاية توطيد المحتلّ الفرنسي أقدامه بالمدينة عام (١٨٤٢)، وتحوّيلها إلى مكان للعرض المسرحي إلى غاية تاريخ هدمها عام (١٨٧٣)م، ونقل مكان العروض المسرحية منها إلى قاعة المتحف الملاصقة لبناية دار البلدية من النّاحية الجنوبية (اللّوحة: ٠٢،أ)٤١.

٥). أهميتها الأثرية والتّاريخية:

لعلّ مكمن الأهمية التّاريخية والأثرية الأساسية، التّي تميّز هذا المعلم عن غيره، تكمن في كونه أحد أفخم المعالم التّذكارية الزّيانية، وأجملها على الإطلاق (اللّوحات: ٠٤، ب؛ ٠٥،ب؛ ٠٦)، حيث يُعد في هذا الصّدد أحد التّحف الفنّية النّادرة، المميّزة للفنّ "المغربي- الأندلسي" بالمنطقة٤٢. أضف إلى ذلك كونه ثاني مدرسة تُشيد بالمغرب الأوسط بعد المدرسة القديمة، أو مدرسة أولاد الإمام بتلمسان دائما، المنشأة من قبل والد هذا العاهل السّلطان أبي حمو موسى الثّاني (٧١٠ - ٧١٨هـ / ١٣١٠ - ١٣١٨م)، كما مرّ من قبل٤٣.

---

٤٠ ونعني بذلك المدرسة الشّماسية المؤرّخة بعام (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م). أكثر تفاصيل بشأنها، ينظر على سبيل المثال: GOLVIN, Op.cit, pp 174 - 193.

41 MARçAIS (W), Op.cit, P VI.

42 BOUROUIBA (R), Op.cit, p 198, colonne 2; GOLVIN, Op.cit, p202;

43 Ibid, p 197 colonne 1.

المنارة للاستشارات
www.

متقدمة بذلك زمانيا جميع المدارس المرينية بالمغرب الأقصى، حيث لا يستبعد تأثير هذا المعلم على تلك المدارس، كما يمكن أن يُستنبط من تطابق المرافق المتوفرة في هذه المدرسة، مع مرافق مدرسة أبي الحسن بالعباد (اللّوحة: ٠٧)، وكذا شكل مصلّى مدرسة سلا بالمغرب الأقصى، المطابق لشكل مصلّى المدرسة التّاشفينية على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر٤٤.

خاتمة:

وصفوة القول، فإنّ إنشاء هذه المدرسة بذلك الموضع، وبتلك الكيفية لم يكون وليد الصّدفة، وإنّما كان نتاج تفكير سياسي عميق، يرمي إلى تحقيق جملة من الأهداف السّامية على مرّة واحدة، لعل من أبرزها على الإطلاق، هو توطيد دعائم المذهب السنّي المالكي في الدّولة الزّيانية بوصفه مظهرا جديدا من مظاهر الاستقلال الفكري، والرّوحي على مذهب مهدي الموحدين "محمد بن تومرت"، يوم كان الزّيانيون مجرّد عمال للموحدين على تلمسان؛ وتكوين إطارات مؤهّلين للضّلوع بمهام البناء والتّشييد في دولة فتية، تسعى جاهدة إلى تحقيق مكانة محترمة بين نظرائها على الصّعيدين المحلّي (المغرب الإسلامي)، والإقليمي (منطقتَا الغرب الإفريقي، والحوض الغربي من البحر المتوسط).

هذا على الصّعيد النّظري على الأقلّ، أمّا على الصّعيد المادي فهي بمثابة منشأة تذكارية، كما يستشف من تنميقها المترف، وموقعها البارز، جاءت لتعزيز الرّموز المادية لمآثر الدّولة الزّيانية، التّي كانت تبدو في شكل حدوة فرس على مستوى نواة العاصمة الزّيانية، النّاشئة، وتحويلها إلى عقد جميل، قوامه حلقة الجامع الكبير من الشّمال، ومسجد أبي الحسن، والرّوضة الملكية الزّيانية من الغرب، وقلعة المشور مقرّ إقامة الملوك الزّيانيين من الجنوب، والمدرسة التّاشفينية من الشّرق.

وبذلك يمكن تمرير رسالة الانطباع الحسن حول عاصمة الدّولة الزّيانية بمنتهى السّهولة والبساطة أمام زُوّارها من السّفراء، والتّجار الأوربيين الذين كانت لهم قيسارية خاصة بشرق هذه المدرسة، والرّحالة، والعلماء، والطّلبة، وأصحاب الحرف، ومرتزقة الجيش، وغيرهم مِمَن كان يمرّ حتما على هذه النّواة المركزية. متخطية بذلك جميع الخطوب الصّعبة التّي مرّت عليها، وفي مقدمتها حصار الثّماني سنوات، الذي ضربه المرينيون على تلمسان بدءً من عام (٦٩٨)هـ من غير جدوى.

44 MARçAIS (G), L'architecture musulmane d'occident, Op.cit, 290.

المنارة للاستشارات
www.

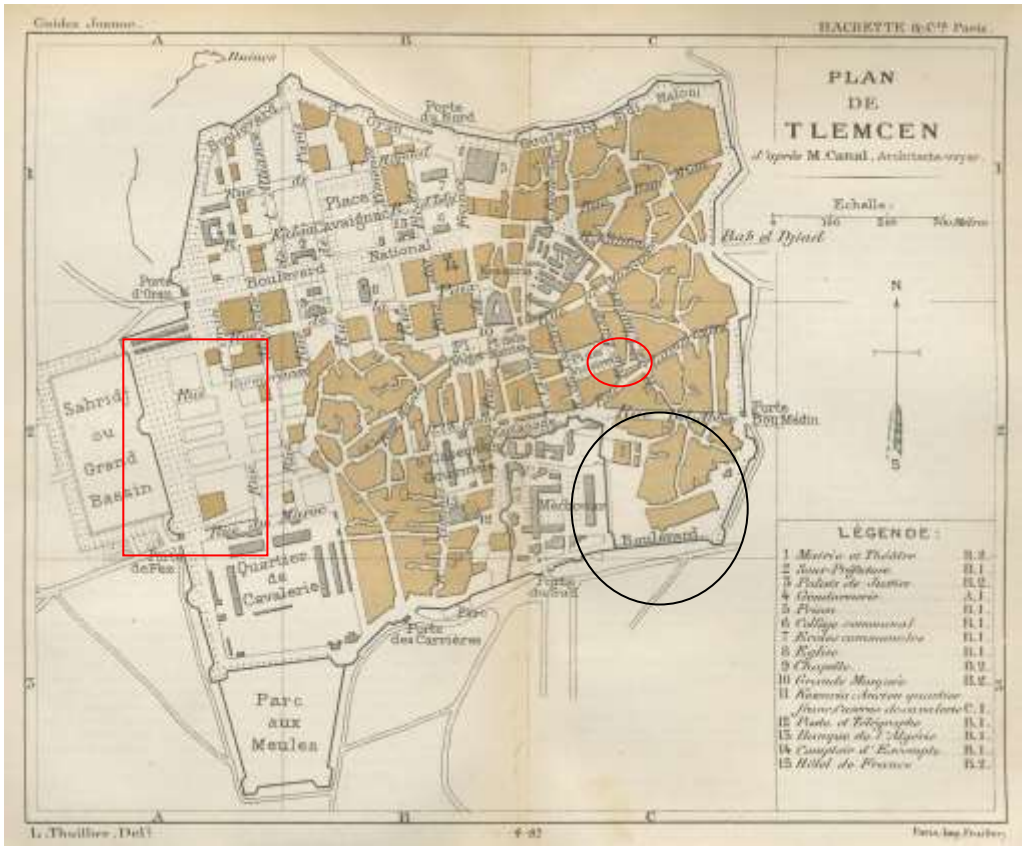

المخطط (٠١): موقع المدرسة من مخطط مدينة تلمسان، الذي رسمه المهندس "كانـال" عام (١٨٨٨)م

المنارة للاستشارات
www.

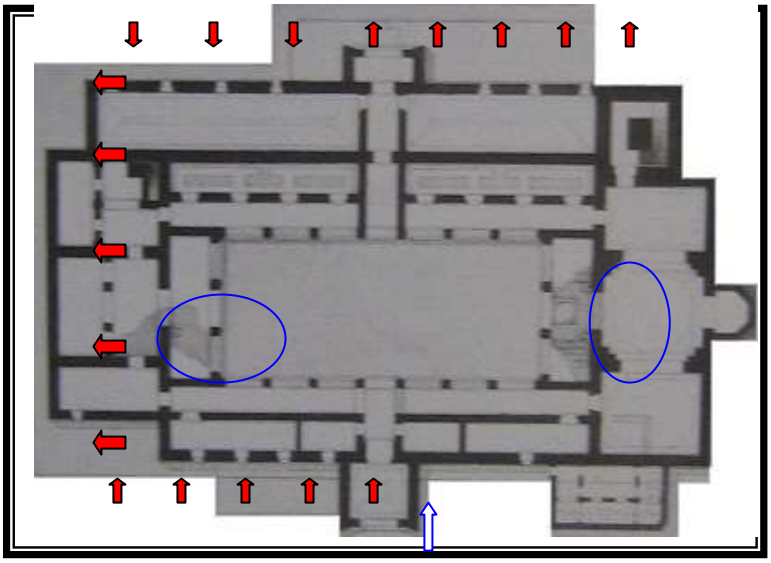

المخطط (٠٢): مخطط المدرسة التّاشفينية، كما رسمها المهندس المعماري "دِيتْوَا"، نقلا عن: "قولفين، لوسيان".

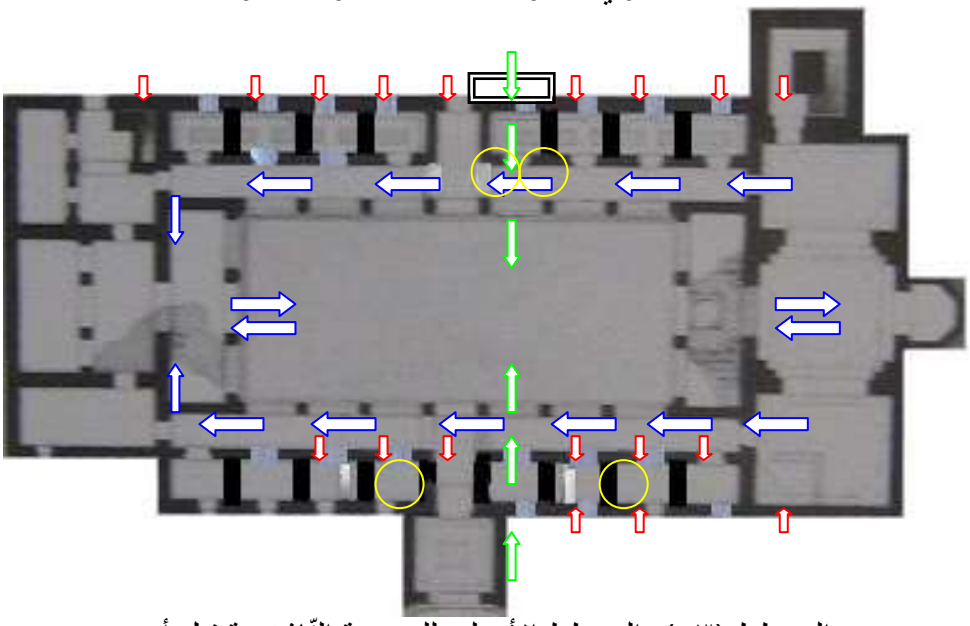

المخطط (٠٣): المخطط الأصلي للمدرسة التّاشفينية قبل أن تلحق بها أعمال الإضافة والتّعديل في نظر الدّارس.

المنارة للاستشارات
www.

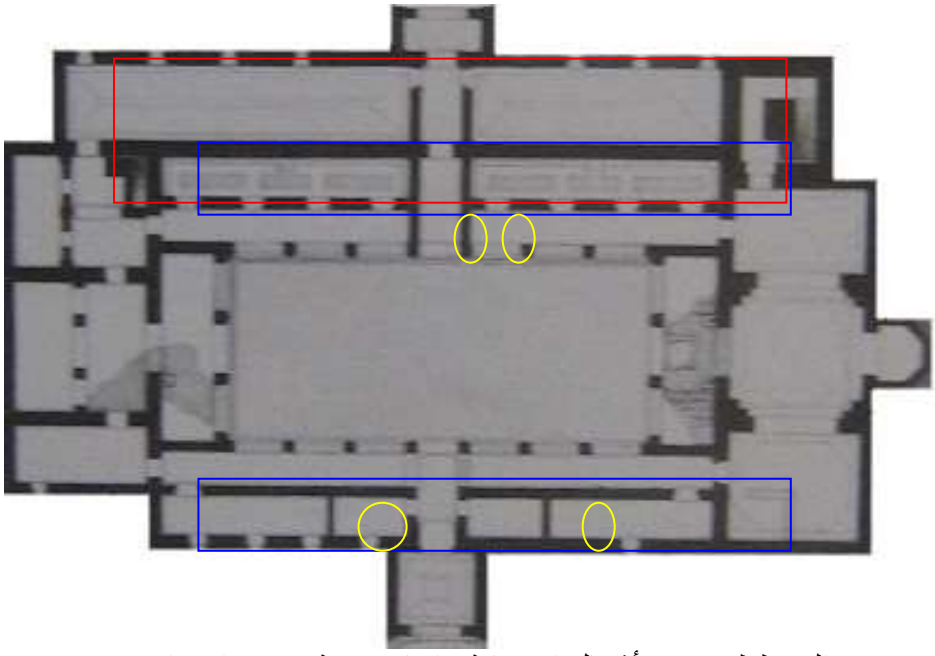

المخطط (٠٤): أشغال الإضافة وإعادة تهيئة غرف الإيواء في غضون أبرز تعديل تاريخي مدخل على المعلم كما يعتقد الدّارس.

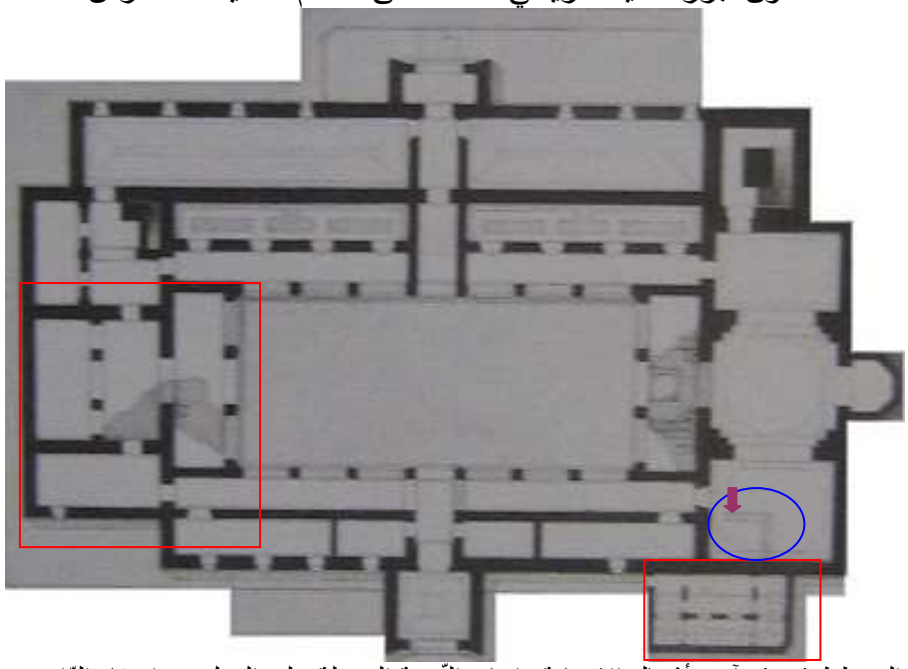

المخطط (٠٥): آخر أشغال الإضافة وإعادة التّهيئة المدخلة على المعلم في اعتقاد الدّارس.

المنارة للاستشارات
www.

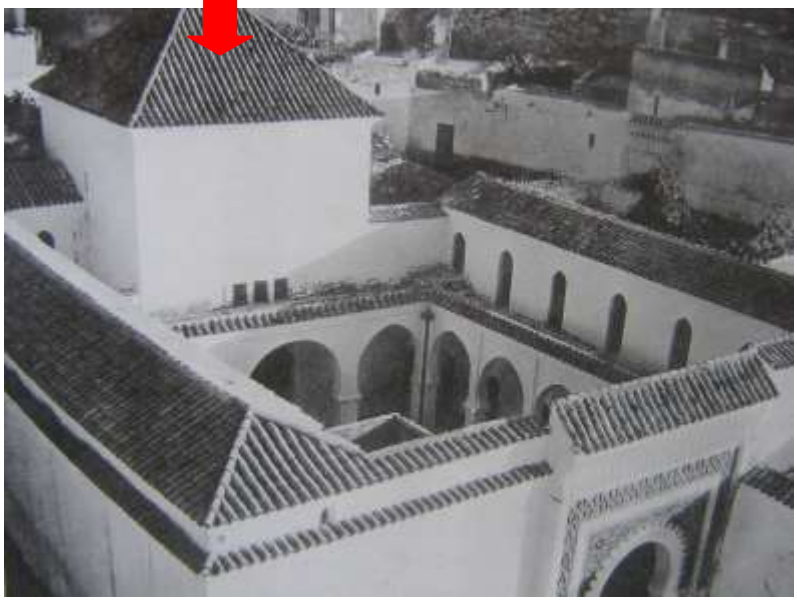

اللّوحة (٠٧): منظر علوي (من مئذنة جامع سيدي بومدين)
لسقف مدرسة هذا الشّيخ، نقلا عن: "قولفين، لوسيان".

اللّوحة (٠١، أ): الجامع الكبير بمدينة تلمسان من جهة القبلة،
حيث كان مقابلا للمدرسة التّاشفينية من النّاحية الشّمالية.

المنارة للاستشارات
www.

اللّوحة (٠١، بـ): مسجد أبي الحسن التّذكاري من الجهة الشّمالية الشّرقية، حيث كان مقابلا للمدرسة التّاشفينية من النّاحية الغربية.

اللّوحة (٠٢، أ): حدّ دار البلدية من الزّاوية الجنوبية الشّرقية، المشيدة على أنقاض المدرسة التّاشفينية وقسم من سوق الزّرع القديم.

المنارة للاستشارات
www.

اللّوحة (٠٢، بـ): حديقة البلدية كما كانت تسمى سابقا، أو ساحة الجزائر حاليا
المُشيد قسمها الجنوبي على أنقاض المدرسة التّاشفينية

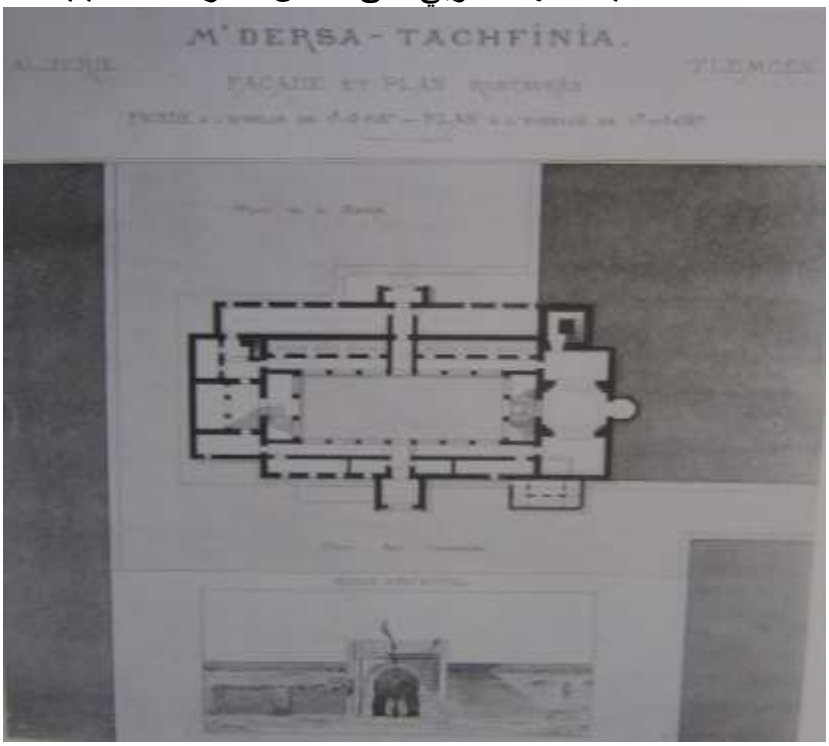

اللّوحة (٠٣): إلى الأعلى مخطط التّوزيع، وإلى الأسفل رفع الواجهة الغربية المقابلة لمسجد أبي الحسن كما رسمها المعماري "دِيتْوَا"، نقلا عن: "قولفين، لوسيان".

المنارة للاستشارات
www.

اللّوحة (٠٤، أ): المدخل الرّئيسي لمسجد سيدي الحلوي ، بالضّاحية الشّمالية لمدينة تلمسان، نقلا عن: "مارسي، جورج".

اللّوحة (٠٤، ج): المدخل الشّمالي الوحيد بمدرسة السّلطان أبي الحسن المريني بالعباد، الضّاحية الشّرقية من مدينة تلمسان ، نقلا عن: "قولفين، لوسيان".

اللّوحة (٠٤، ب): المدخل الرّئيسي للمدرسة التّاشفينية، الذي كان يقع بالجهة الغربية، كما يؤكّده عقده المفصص في رفع المهندس"دِيثْوَا" للواجهة الغربية؛ وكسوته الفسيفسائية من الأسفل إلى الأعلى على حسب شهادة الرّحالة "بارجاس" في منتصف القرن (١٩)م، الذي دخل منه وخرج من الباب الشّرقي متجها لدار القضاء ، نقلا عن: "مارسي، جورج".

اللّوحة (٠٥): نماذج اللّوحات الفسيفسائية المتبقية من

المنارة للاستشارات
www.

بالمتحف المحلّي بتلمسان، والمتحف الوطني للآثار القديمة بمدينة الجزائر

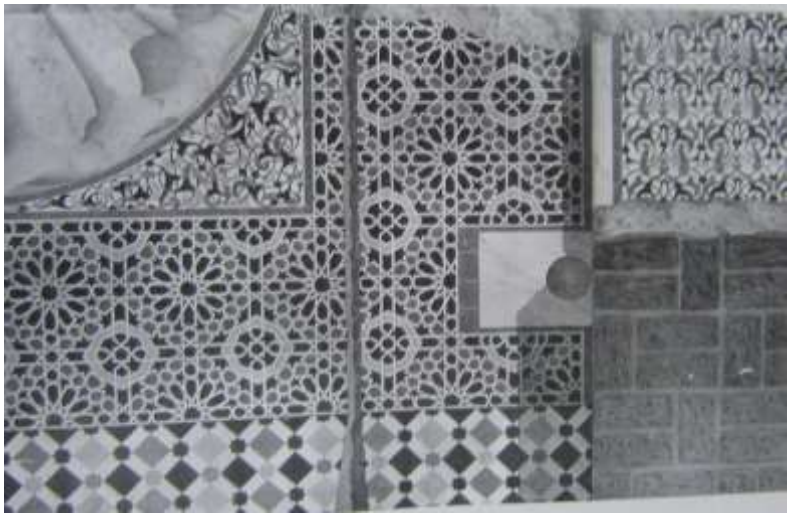

المنارة للاستشارات
www.

اللّوحة (٠٦، أ): مصراع أحد الأبواب الدّاخلية، المتبقية من المدرسة التّاشفينية، محفوظ اليوم بالطّابق العلوي من متحف تلمسان المحلّي.

اللّوحة (٠٦، ب): مصراع أحد الأبواب الدّاخلية، المتبقية من المدرسة التّاشفينية، محفوظ اليوم بالطّابق العلوي من متحف تلمسان المحلّي.

المنارة للاستشارات
www.